تراث

toratheh
تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 276 اكتوبر 2022

الزي العسكري..
أصالة عربية وجذور تاريخية

تطور ملابس شرطة إمارة أبوظبي في
الفترة التاريخية من (1957 - 2017)

إليزابيث الثانية...
الملكة الأكثر حضوراً وتأثيراً في العالم

الكناية في اللهجة الإماراتية

الشعر بين الرواية والمخطوطات

عشق التراث في أدب الطفل

موسم المربعانية (على حساب الدرور)

نادي تراث الإمارات
يطلق برنامج الشعر النبطي الإماراتي

زيارة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان لمحطة الخيول العربية بمصر عام 1971

التشابه بين الحكايات الشعبية العربية

أسطورة تاجوج السودانية وتشابهها مع قصة من اليمن نموذجاً

عبد الحكيم الزبيدي

المتأمل في التراث الشعبي في مختلف البلاد العربية يجد تشابهاً كبيراً في الموروث الثقافي بين كثير من البلاد العربية رغم تباعدها واختلاف لهجاتها وثقافتها. وكل هذا يدل على وحدة الأصل والمنبع الذي استقت منه تلك الشعوب موروثها الثقافي وهو الثقافة العربية والإسلامية.

ومن خلال اطلاعي على الموروث الشعبي العربي وقعت على بعض القصص أو الأساطير التي تتكرر في بعض البلدان العربية ولكن بتفاصيل مختلفة. وسوف أتناول هنا قصة من الموروث الشعبي السوداني تشابهت أحداثها إلى حد التطابق تقريباً مع قصة جرت في منطقة حضرموت باليمن.

أسطورة تاجوج والمُحلَّق وهمهوم

من الأساطير الشعبية المعروفة في السودان أسطورة تاجوج والمحلق، وهي قصة حب رومانسي بين شاب وفتاة من قبيلة الحمران، أشبه بقصص الحب العذري في الأدب العربي مثل قصة ليلى والمجنون، وجميل بثينة وغيرهم. وسنعرض ملخصاً لهذه القصة نقلاً عن كتاب الدكتور عبد الله الطيب: (الأحاجي السودانية)[1]، وقد رواها بأسلوب أقرب إلى العامي كما سمعها من أفواه العجائز: «كانت تاجوج أجمل بنت في حلتها وكانت بنات حلتها أجمل البنات في كل البلاد وكانت تاجوج مثل الحورية... وكان المُحلَّق من أولاد الحُمران شاباً وسيماً كريماً طيب الأخلاق طيب الأسرة كثير المال، ورأى المحلق تاجوج وعشقها مثلما قيس عشق ليلى في الزمان القديم. ورأت تاجوج المحلق فأعجبها منظره. ولما جاء المحلق يخطبها وجد قبولاً حسناً وتزوجها وكان سعيداً جداً وكانت هي أيضاً سعيدة جداً... وكان المحلق له صاحب اسمه همهوم. وكان في قلبه يحسد المحلق جداً ... ويقول في نفسه: هذا المحلق، هو ليس أقوى مني جسماً ولا أنبه مني عقلاً وأسرته ليست أشرف من أسرتي ... ماله كثير ولكن أنا مالي أكثر وامرأتي أجمل بنت في القبيلة كانت قبل ما تظهر تاجوج. ولو كانت تاجوج ظهرت وصارت معروفة بالجمال أيام أنا نويت أتزوج كنت تزوجتها والمهم أنا أفضل من المحلق فلماذا كل الناس تقول المحلق تاجوج تاجوج».

وخلاصة ما حدث بعد ذلك، أن همهوم ذهب للمحلق وقال له إن زوجته (مية) أجمل من زوجة الملحق (تاجوج) وأن زوجته (مية) لما تزوجته «رقصت العروس عريانة مثل ما أمها ولدتها في شان يراها الناس ومن أجل أن يعرفوا جمالها وأن جسمها صحيح ما فيه أي سقم». وقال همهوم للمحلق: «تاجوجك ليست أجمل من مية محبوبتي. وقال له المحلق: أجمل. وقال همهوم: إذا كنت تعتقد فعلاً أن تاجوجك أجمل خليني أنظر إليها عريانة مثل ما خلفتها أمها». ولما رفض المحلق قال له همهوم: «لكن العادة العروس ترقص عريانة.. وقال المحلق: العادة يا همهوم لا شرع ولا فرع، أتريدني يا همهوم أن أرقص أجمل البنات عريانة قدام الناس فتصيبها العين، لأن مثل جمالها لا بد تنفذ فيه العين، وقال همهوم: العادة شرع وفرع، والذي يسع كل بنت وولد في القبيلة يسعك أنت وتاجوج».

«ودعا المحلق تاجوج لتسلم على همهوم فرأى جمالها وانبهر به، وحين ذهبت سأله المحلق: أليست أجمل الناس؟ وقال همهوم: وجهها جميل وعينها جميلة ولكن الثياب تخفي الباقي ومية زوجتي أجمل وأنت رأيتها ترقص عريانة وأنا ما رأيت تاجوج عريانة ولو رأيتها عريانة أستطيع أن أحكم. وقال المحلق لهمهوم: ستراها عريانة».

وبعد انصراف همهوم دخلت تاجوج على زوجها المحلق فرأته مهموماً فسألته عن حاله فكتم أول الأمر ثم صارحها بما طلبه منه همهوم.

فرفضت أول الأمر، فقال لها: «العادة شرع وفرع ونحن خالفنا العادة وأنا بقيت ضحكة بين الأصحاب وهذه إرادتي وعليك طاعتي». فقالت له: «سأطيعك ولكن شريطة أن تعطيني أي شيء أطلبه منك... ووافق المحلق وحضر والده ووالد تاجوج وقالوا لتاجوج: العادة ما فيها عيب. وقالت تاجوج: لا أقبل إلا أن يعطيني ما أطلبه، ووافق المحلق أمامهم.

وكان همهوم يعاين وكان فوق رأس شجرة ومن شدة ما راعه جمالها وقع من الشجرة وكسر رقبته ومات. وقالت تاجوج للمحلق: الآن اعطيني مرادي، وقال لها: اطلبي ولو روحي. وقالت تاجوج له: لا أريد روحك ولكن أريد الطلاق. وأحس المحلق أن الصاعقة وقعت فوق رأسه، وبقت النار في قلبه وأراد أن ينط من وعده، ولكن تذكر الشهود، ثم تذكر أنه عيب كبير في القبيلة أن يعطي وعداً أكيداً ثم يخالفه، وطلقها طلقة بائنة». وكانت نهاية المحلق أن «هام في البلاد مثل المجنون وهو يغني بغرامه بتاجوج ويلوم نفسه لأنه سمع كلام همهوم وقال في نفسه: همهوم نظرة

قتلته يا ليتني مت مثله». وحاول الناس التوسط لدى والد تاجوج أن يقبل برد بنته للمحلق ولكنه أبى لأنه «عيب عندهم إذا غنى الشخص بامرأة وشاع ذلك أن يزوجوها له». وحاول رجل من أهل الحلة اسمه (صديق) أن يتوسط بين المحلق ووالد زوجته، وقال له: «تسافر معي وعلى شرط ألا تغني بتاجوج ولا أي إنسان من أول الليل إلى الصباح في ليالي سفرنا لبلدها إذا فعلت ذلك فأنا أضمن لك رجوع تاجوج». ووافق المحلق، فعاد به صديق والتزم المحلق بوعده بعدم إنشاد الشعر في تاجوج حتى شارفا على الوصول إلى ديار تاجوج فلم يستطع المحلق الصبر وأنشد شعراً في تاجوج. فصاح صديق في وجه المحلق: «ماذا دهاك. ذا الفجر على وشك الطلوع وتلك حلة تاجوج .. ولكن يا للأسف أنك خالفت الشرط ولا أستطيع أن أصنع لك شيئاً، وشهق المحلق شهقة كبيرة وسقط جثة لا حراك بها. ووقفت تاجوج تنظر والتف الناس حولها ينظرون».

أما تاجوج فقد جاءت قبيلة معادية فحاربت قبيلتها واختطفوها، ثم جعل رجال هذه القبيلة يتحاربون فيما بينهم كل منهم يريد تاجوج لنفسه وخرج رجل شقي الوجه بيده سيف فقتلها وحفر لها قبراً وجعلوا يبكون، وهكذا كانت نهاية المحلق وهمهوم وتاجوج.

قصة الشيخ حسين بن زايد اليافعي وزوجته

تتشابه أسطورة تاجوج والمحلق السودانية مع قصة في الموروث الشعبي اليمني، رواها العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف في كتابه (العود الهندي) والكتاب في الأصل في نقد أبيات المتنبي، ولكن السقاف كان يستطرد في حديثه، كعادة المؤلفين القدامى، فيذكر ما تختزنه ذاكرته من أحداث وقصص يستدعيها سياق حديثه. فعند تناوله لبيت المتنبي[2]:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وبعد أن شرحه وأورد كل ما يتعلق به، ذكر حكايات عن العشق والوجد الصوفي، ثم قال: «وإذ انتهى بنا حديث الشوق إلى هنا فلا نُدحة لنا من ذكر أمثلة سمعتُ بها في الأخير، لنُلحق التالد بالطارف، منها...»[3].

وذكر بعض القصص التي سمعها من معاصريه وقعت أحداثها في اليمن، ومنها هذه القصة. وسندع العلامة ابن عبيد الله السقاف

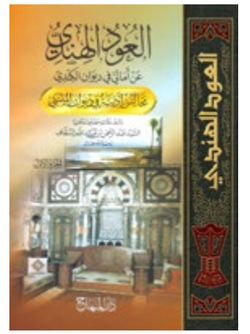

يروي لنا أحداث القصة بأسلوبه الأدبي الراقي. يقول ابن عبيد الله[4]: «ومنها: أنَّ الشيخ حسين بن زايد الشاعرَ، اليافعيَّ، المشهورَ، القريب العهد بحضرموت، كانت له امرأةٌ مَلَكت عقله، وغَلَبَتْ هواه، وملأتْ رضاهُ، فبينا هو معها يوماً على قهوةٍ، قال: أتمنى عليكِ أُمنيةً، أُحبُّ أن توافقيني عليها، قالت: نعم، قال: كائنةً ما كانتْ؟ قالت: نعم، وأخذ عهدها بذلك، فقال: اصنعي القهوة عُربانةً، فاستقالتهُ، فلم يقبل، ففعلت، ولمَّا أدَّتِ الوظيفةَ قالت: وأنا أتمنى عليكَ أمراً، أفتعطينيه؟ قال: نعم. قالت: كائناً ما كان؟ قال: نعم، وأخذت عليه ميثاقاً غليظاً، قالت: تطلقني بالثلاثِ في الحالِ، ولمَّا فشل في المراجعة، ولجَّتْ في التصميم؛ لم يسعهُ إلا الوفاء بما اقتطعه على نفسه، وإن كان فيه حتفُهُ، ثم خرج هائماً على وجهِهِ، وأشار على أخيهِ أن يتزوجها إذا حلَّت[5]، فامتثلَ، وبعقب ذلك جاءَ لتهنئةِ أخيهِ، فدخلَتْ هي، وألقت جانب الستر، فأنشدها أبياتاً من شعرهِ الحُميني[6]، يزعمُ فيه: أنه رآها وإيَّاه مجتمعين على شرب قهوة في فراشٍ واحد، فأجابته من بحره وقافيته بما يقطع أملَهُ، ويخيِّبُ رجاءه، وكان ذلك في حين ذهاب أخيه لبعض شغله، ومُذ زوَّدته اليأس الحاضرَ استولاه الضعفُ، وزاره السقامُ، ولزمتهُ العللُ، واشتملَ على الفراش، ولمَّا استعرَ به الألمُ، واستحرَّ به الوجْدُ، ونهَكَهُ المرضُ طلب من أخيه وصولَ المرأةِ؛ ليستحلَّها، ويطلبَ العفو منها، وربما خطر بباله ما خطر ببالِ مجنون عامرٍ في قوله:

ولَـــو شَهِـدَتْني حينَ تأتـي مَـنِيَّتي
جلا سكـــراتِ الموتِ عـنِّي ابتسـامُهَا

أو قول الأعشى:

لو أسنـــدتْ مَيْتَـــاً إلى نحرهـا
عـــاش ولـم يُنقَـــلْ إلى قَـــبرِ

فأشار عليها أخوه بالذهابِ، فامتنعتْ، وقالت له: أَولى لك أنْ لا تفعل، فألحَّ عليها، وبمجرد دخولها على حسين ازدهرت عيناهُ، كأنهما سِراجانِ، واستأذنها أن يضعَ رأسَهُ على فخذها، فأذنتْ، ولحين ما وضعهُ فاضتْ نفسُهُ، ولم ينفعه ما سبق عن الأعشى والمجنون، بل كان الأمر كما قال غيرهما:

ولمَّا رأَتـني في السيـــاقِ تَعَطَّفَـــتْ
عَليَّ وعنـــدي من تَعَطُّفِهَـــا شُغْـــلُ
أَتَتْ وحيـــاضُ الموتِ بيـــني وبَيْنَهَـــا
وَمَنَّـــتْ بِوَصْلٍ حينَ لا ينفعُ الوَصْـــلُ

وقال جريرٌ:

إذا مَـــا رَجَـــا الظَّمْـــآنُ وِرْدَ شَرِيْعَـــةٍ
ضربنَ حِيَـــــالَ الموتِ دونَ الشرائـــــعِ

ثم حرَّكوها، فإذا هي يابسةٌ».

التشابه والاختلاف بين القصتين

نلاحظ أن قصة تاجوج والمحلق هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى القصة الحقيقية، وقد تكون القصة لها أصل من الواقع، ولكن أضيف إليها الكثير من التفاصيل التي جعلتها تصبح أشبه بالأسطورة. وقد رواها البروفيسور عبد الله الطيب باعتبارها واحدة من الحكايات التي «كانت الجدات في زمان مضى يسلين أطفالنا بعيد المساء بحكايات ومسائل من الأنس يقال لها الحُجا بضم الحاء المهملة، وأصل ذلك من الحِجا بكسرها وهو العقل والذكاء، وكان الأرب من هذه الحكايات شحذ الأذهان وإدخال السرور على نفوس الصغار ربما يغلب عليهم الناس»[7].

وكان الدكتور عبد الله الطيب قد روى قصة تاجوج والمحلق في كتابه (المرشد)[8]، في معرض حديثه عن قصيدة (المتجردة) للنابغة. يقول الدكتور عبد الله الطيب: «وخبر التجرد كأنه جارٍ مجرى الأساطير والخرافات في بعض قصص البدو، مما ينبئ عن سابقة له سحيقة البون في الماضي السابق. من ذلك مثلاً عندنا في السودان قصة تاجوج والمُحلَّق. يزعمون أن كليهما من قبيلة الحُمران». ثم يضيف: «وقد عشق المحلق تاجوج وعشقته وتزوجها لقرابة بينهما، ثم أنه بلغ من كلفه بها، وكان امرأً شاعراً، أن أرادها ذات يوم على أن تتجرد أمامه مقبلة ومدبرة، فشق ذلك عليها، وعاهدته وقاسمته على أن يعطيها مرادها إن هي أعطته ما أراد، فأجابها إلى ما عاهدته وقاسمته عليه. ثم لما رأى منها ما رأى عزمت عليه أن يطلقها ولم يجدد بداً من ذلك واستلب لبُّه فيما بعد أو كأنه قد استلب أسىً على الذي فعله». والملاحظ أن الدكتور الطيب قد نص هنا على أن القصة من الأساطير والخرافات. أما قصة الشيخ حسين بن زايد اليافعي فقد رواها ابن عبيد الله عن شخصية حقيقية وصفه بالشاعر المشهور، وبأنه «قريب العهد» أي معاصر لابن عبيد الله. ومن حيث الأحداث فقصة اليافعي أقرب إلى التصديق، إذ طلب من زوجته أن تتعرى أمامه وحده، وهذا مباح بين الزوجين، ولكن الزوجة لم تستسغه لما نشأت عليه من الحياء فطلبت منه الطلاق عقب ذلك، وهذا مما يمكن أن يحدث في المجتمعات الريفية والبدوية. أما في قصة تاجوج فالمحلق طلب من زوجته أن تتعرى ليراها الهمهوم وأصحابه فيقتنعوا أنها أجمل من زوجة الهمهوم. والغريب أن المحلق حين رفض طلب الهمهوم هذا في بادئ الأمر لم يرفضه غيرة على زوجته أن يراها الناس عارية كما ولدتها أمها، وإنما خوفاً عليها من الحسد. والأغرب من ذلك هو أن يوافقه أبوه وأبوها على تلبية طلب الهمهوم قائلين لتاجوج: «العادة ما فيها عيب». وكل هذا مما يستغرب أن يحدث في القرى العربية المسلمة، ويجعل القصة أشبه بالأسطورة. ولعل ذلك من إضافة الرواة، إذ إن الدكتور عبد الله الطيب لم يشر في رواية (المرشد) إلى شخصية همهوم، وجعل رغبة المحلق في تجرد تاجوج لنفسه فقط، مثلما هو الحال في قصة اليافعي، وذلك أقرب إلى التصديق لإمكانية حدوثه في الواقع. وتبقى التساؤلات حول هاتين الحكايتين قائمة: ما مدى صحتهما؟ وهل هناك تأثر وتأثير بينهما؟ وأيهما أسبق في الحدوث؟ ولا شك أن التراث الشعبي مليء بالعديد من الحكايات المتشابهة بين الشعوب العربية والإسلامية، وهذا موضوع يستحق مزيداً من البحث والدراسة ■

* باحث من الإمارات

الهوامش:

1. الطيب، عبد الله: الأحاجي السودانية، مطبعة جامعة الخرطوم، ط5، 2008م، ص ص 169 - 176.
2. السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله: العود الهندي عن أماليّ في ديوان الكندي، مجالس أدبية في ديوان المتنبي، دار المنهاج، بيروت، 2002م، ج1، ص 102.
3. المرجع السابق، ج1، ص 124.
4. المرجع السابق، ج1، ص 125.
5. لتحل له مراجعتها بعد أن يطلقها أخوه لأنه طلقها ثلاثاً.
6. الحُميني: يطلق في اليمن على الشعر العامي الشعبي، ويقابله في دول الخليج: النبطي.
7. الطيب، عبد الله: الأحاجي السودانية، مرجع سابق، المقدمة، ص 9.
8. الطيب، عبد الله: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الثالث، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، الطبعة الثالثة، 1991م، ص ص 444 - 446.